تقديم

تقديم كتاب "الصوم والفمويّة" للدكتور كوستي بندلي الصادر بلغة الضادّ يشكّل بالنسبة لي مصدر فرح كبير إذ لم أعتقد أنّ يومًا سيأتي لأقدّم لمن أدين له بالكثير، مع آخرين سواي، عرفوه شخصيًّا أم لم يعرفوه. لذا، لا تعدو هذه المحاولة، على صغرها وتواضعها، سوى عربون لما قدّمه المؤلّف نفسه، بمثاله ومواقفه وكتاباته التي انبرى فيها، بكلّ الفؤاد والوجدان والكيان، ليشارك أترابه في الإيمان والإنسانيّة ما حباه الله به من مواهب وما زاده هو عليها بالدراسة والتنقيب والتمحيص، بالإضافة إلى الحكمة والبصيرة والتمييز التي توشّح بها بفضل نعمة الله عليه.

اكتشافي للكتاب

كعادتي كل عام، أبّان خدمتي الأسقفيّة لإبرشية بوينس آيرس وسائر الأرجنتين، كنتُ آتي إلى لبنان للمشاركة بدورة المجمع الأنطاكي المقدس. حدث أن زرتُ الدكتور نقولا لوقا، صديق وأخ قديم العهد، وكان قد جمع في منزله مجموعة من الإخوة الذين تربطني بهم روابط جميلة جدًّا نسجناها معًا في فرع الميناء لحركة الشبيبة الأرثوذكسية، وقدّم لي مجموعة من كتب الدكتور كوستي بندلي الصادرة بالفرنسية، ومنها، على ما أذكر، كتابه "الصوم والفمويّة".

أمّا اكتشافي لمضمون الكتاب فقد تأخّر بعض الشيء. يعود الفضل في ذلك إلى معاناة برزت في الرعاية في الأرجنتين حيث الرعيّة بعيدة عن مصادر التقليد الكنسيّ الحيّ. هذا ما ينعكس بشكل مباشر على طريقة عيش الإيمان، والصوم هو أحد جوانبه، وذلك بارتباطه الوثيق بالدورة الطقسيّة وانعكاس ممارستها على صعيد الحياة الروحيّة. لمستُ في رعايتي وزياراتي الرعويّة في الأرجنتين كم أنّ ممارسة الصوم غائبة عن حياة المؤمنين الأرثوذكس.

الدافع إلى ترجمته إلى الإسبانيّة وإصداره

هكذا دفعني الواقع إلى الاستفادة من كتاب "الصوم والفمويّة" في مقاربة الصوم مع أبنائنا في الأرجنتين، فتناولت جزءًا مهمًا من مضمون الكتاب مع رعيّتي الأولى، تلك المؤلّفة من كهنة وشمامسة

الأبرشية وعائلاتهم. فقمتُ بترجمة قسم من الكتاب إلى الإسبانية وتمّ تدارسه في إطار حلقة دراسيّة سنويّة جمعتني بإكليروس أبرشية الأرجنتين وزوجاتهم. فشكّلت هذه المسوّدة مادّة للحديث عن الصوم، إلى جانب نصوص أخرى عديدة سلّطت الضوء على معنى ممارسته.

أمّا استكمال ترجمة الكتاب مع حواشيه الكثيرة والقيّمة فقد دفعتني إليها ظروف أخرى سأعرض لها رغبة في توثيق مسار الكتاب ومؤلفه في "العالم الجديد"[1]. ففي زياراتي الرعويّة إلى ولاية سانتياغو ديل استيرو في الأرجنتين، كنتُ ألتقي بشكل سنويّ رئيس وأعضاء المجلس الأعلى للجامعة الكاثوليكيّة في تلك الولاية[2]. في إحدى اجتماعاتي بالمجلس المذكور، تشاركتُ مع عمداء الكلّيات الحاضرين بمضمون الحلقة الدراسيّة الآنفة الذكر، بالإضافة إلى أهميّة شهادة الشرق المسيحي كما وخلق مساحة تفاعل تكون جسرًا بين الشرق المسيحي والغرب المسيحي. وتعرضتُ، في جزء من حديثي، لكتاب "الصوم والفمويّة" ومضمونه، وعبّرتُ عن رغبتي بأن يصل إلى أترابي المتكلّمين الإسبانية، لما يحويه من بحث قيّم جدًّا يسلّط الضوء على ممارسة هي من صلب حياتنا المسيحيّة.

حينها، كان الإطار السياسي العالمي متمحورًا حول الحرب المشتعلة في العراق ومن ثمّ في سوريا، والتي كانت على أشدّها، بينما كان إطار العمل على صعيد الكنيسة الأرثوذكسيّة قد بدأ يأخذ منحى جديدًا من جراء تفعيل آليّات التحضير للمجمع الأرثوذكسي الكبير، حيث كان موضوع الصوم مطروحًا من ضمن أوراق العمل. هذان البعدان أعطيا لحديثنا في الجامعة المذكورة أهميّة كبرى، وأثارا اهتمام الحاضرين وتشجيعهم لبناء مثل تلك الجسور. وقد أبدت عميدة كليّة العلوم الإنسانيّة اهتمامًا كبيرًا بقراءة الكتاب واستطلاع إمكانية نشره باسم الجامعة بشكل إلكتروني أوّلاً، ولربما بشكل ورقيّ لاحقًا. بناء عليه، التزمتُ بإنهاء ترجمة الكتاب من الدفة إلى الدفّة وبالحصول على إذن من عائلة الدكتور كوستي بندلي بنشر الترجمة، وفّرها لي السيد رينيه أنطون، وهو أمين عام سابق لحركة الشبيبة الأرثوذكسيّة. وهذا ما حصل.

---

[1] هذا المصطلح أُطلق على القارتين الأمريكيتين بفعل المكتشفات الجغرافية التي انطلقت مع الرحالة كريستوف كولومبوس، بينما جرى تبنّي مصطلح "العالم القديم" للعالم ما قبل رحلة هذا الأخير، أي أوروبا وآسيا وأفريقيا.

[2] الرابط مع تلك الجامعة جرى على خلفيّة التعاون بينها وبين جامعة البلمند عبر اتفاقية تعاون تجلّت خصوصًا في مجال برامج التعليم عن بُعد باللغة الاسبانية، حيث كانت الجامعة المذكورة تصادق على شهادات التلامذة الذين يدرسون في برنامجَين تنظّمهما جامعة البلمند باللغة الإسبانيّة وهما: دراسات في الكتاب المقدّس (Cursos Bíblicos de Balamand – C.B.B.) والتنشئة المسيحيّة (Seminario Ortodoxo de Formación para Ibero-América – S.O.F.I.A.).

تأخّر إصدار تلك الترجمة بالإسبانية سنين قليلة لأنّ أسبابًا مختلفة حالت دون إصداره من قبل الجامعة المذكورة. إل أنّ الظروف المستجدّة في خدمتي دفعتني إلى إصداره باسم أبرشيتنا في بداية شهر تموز 2018، وذلك إثر قرار المجمع الأنطاكي المقدس بنقلي إلى أبرشية جبيل والبترون وما يليهما بتاريخ 27 نيسان 2018. فبعد هذا القرار، عدتُ إلى الأرجنتين، كمعتمد بطريركي للأبرشية، وذلك للقيام بعملية التسليم المطلوبة، فعملتُ ساعتها على إصدار عدد من المؤلفات والترجمات[3]، كانت من بينها كتاب الدكتور كوستي "الصوم والفمويّة"[4].

الكتاب من حيث الدافع إلى وضعه

في طبعة الكتاب الأولى الصادرة باللغة الفرنسيّة[5]، قرأتُ في التمهيد الذي وضعه المؤلّف كيف أنّ الدافع إلى وضعه كان طلبًا قد تقدّم به إليه، منذ أكثر من ثلاثة عقود، المتروبوليت جورج خضر، سلفي في رعاية هذه الأبرشية، بأن يُعدّ دراسة حول "الجوانب النفسيّة للصوم الأرثوذكسيّ". وقد فهمتُ أنّ هذه الدراسة لم يكن المقصود منها فقط أن يتمّ التعاطي معها ضمن حدود كنيستنا الأنطاكيّة، بل شكّلت مساهمة من كنيستنا في مقاربة مسألة الصوم في إطار العمل المشترك الذي جمع الكنائس

[3] من بين تلك الترجمات، هناك مجموعة دراسات للدكتور كوستي بندلي جمعتها في الكتاب التالي، مستوحيًا عنوانه من السلسلة الشهيرة في منشورات النور الأرثوذكسية "الإنجيل على دروب العصر":

Costi Bendaly, *El Evangelio en el caminar de nuestra vida y realidad de hoy*, traducido por el Metropolita Siluan de Buenos Aires, Ediciones Arzobispado de Buenos Aires y toda Argentina de la Iglesia Católica Apostólica Ortodoxa de Antioquía, Buenos Aires, 2018.

وهو يحوي جزء من كتاب "مدخل إلى العقيدة المسيحية"، والقسم الأول من كتاب "فتنة الاستهلاك أم فرح المشاركة؟"، وكتاب "كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء ؟"، بالإضافة إلى مقالتين حول الإرشاد والمفهوم الكتابي للجنس. بذلك تحقّقت إحدى أمنياتي بتوفير هذا الكتاب بالإضافة إلى غيره، للناطقين باللغة الإسبانيّة، لا سيّما للمؤمنين الأرثوذكس.

[4] Costi Bendaly, *Ayuno y Oralidad – Aspectos psicológicos, espirituales y pastorales del ayuno ortodoxo*, traducido por el Metropolita Siluan de Buenos Aires, Ediciones Arzobispado de Buenos Aires y toda Argentina de la Iglesia Católica Apostólica Ortodoxa de Antioquía, Buenos Aires, 2018.

[5] Costi Bendaly, *Jeûne et Oralité – Aspects psychologiques, spirituels et pastoraux du jeûne orthodoxe*, Édition An-Nour COOP, Beirut, 2007, p. 12.

الأرثوذكسيّة المستقلّة في القرن العشرين والحادي والعشرين، والذي كان مرادًا له أن يتبلور بشكل نهائيّ في إطار انعقاد المجمع الأرثوذكسيّ الكبير العتيد[6].

الكتاب من حيث وقعه

أقرّ بأنّ ليست لديّ المعطيات التي تسمح لي بمعرفة الصدى الذي وجده الكتاب في كنيستنا الأنطاكيّة أو على الصعيد الأرثوذكسيّ العام. خدمتي الأسقفيّة في "أقصى المعمورة"[7] ما كانت لتسمح لي بذلك. لكنّي أستطيع القول بأني استفدتُ منه في خدمتي الأسقفيّة ورعايتي في الأرجنتين.

ولكن أهمّ ما عثرتُ عليه من جهة تقييم الكتاب يعود إلى اللاهوتيّ الأرثوذكسيّ أوليفييه كليمان: "كتاب كوستي بندلي يشكّل محاولة رائعة لدراسة النسك الأرثوذكسيّ باستعماله، بشكل نقديّ، مساهمة العلوم الإنسانيّة في سبرها لحدود النفس في العالم الغربيّ المعاصر. (...) من حيث المبدأ، يُظهر كوستي بندلي أنّ الصوم له غاية وهي أن يستأصل 'الرغبة' من 'الحاجات' (حيث ترغب الحضارة، التي سمّيت بحقّ 'استهلاكيّة'، أن تحبسها فيها)، بحيث 'تعود إلى مكانتها الأولى'، كما كان يقول القدّيس غريغوريوس بالاماس: رغبة بالله، ما يعني أنّها مفتوحة على المحبّة، بحيث تصير، بفضل الصوم، اقترابًا من الكائنات والأشياء يغلّفها الاحترام والمحبّة"[8].

---

[6] هي عبارة معروفة في الأرجنتين للدلالة على النقطة القاريّة المأهولة الأكثر بُعدًا في العالم، بحيث تشكّل النقطة الأقرب جغرافيًا لاجتياز المحيط لبلوغ القطب الجنوبي. وقد استعمل قداسة البابا فرنسيس هذه العبارة، للإشارة إلى بلده، في خطابه الأول إثر إعلان انتخابه حبرًا على روما بتاريخ 13 آذار 2013.

[7] الجدير بالذكر أنّ اشتراكي في التحضيرات لهذا المجمع، باسم كنيستنا الأنطاكيّة، منذ اجتماع رؤساء الكنائس الأرثوذكسيّة المستقلّة في الفنار في العام 2014، ومن ثمّ في أمانة سرّ المجمع الأرثوذكسيّ الكبير في العام 2016، وضعني في تماس مع النصوص التي كانت قد تداولتها اللجان الإعداديّة قبل ذلك ومنها النصّ الخاصّ بمسألة الصوم. مطالعتي للمسوّدة الخاصّة بالصوم جعلتني أدرك أنّ الكتاب الذي بين يديَّ لم يلهم واضعي المسوّدات المختلفة ولا حتّى النصّ النهائيّ المقترح. جلّ اعتقادي أنّ آليّات العمل بين الكنائس الأرثوذكسيّة وطريقة التعاطي مع النصوص في لجان العمل المشترك، ومن ثمّ في إطار اجتماعات المجمع المقدّس لكافّة الكنائس الأرثوذكسيّة ما كانت لتسمح بتعاطٍ يمكن للمرء أن يستفيد من المعطيات الواردة في دراسة الدكتور كوستي بندلي حول الصوم، سيّما وأنّه يطرح "بعض المقترحات بغية الوصول إلى إصلاح محتمل للتطبيق الحاليّ للصوم الأرثوذكسيّ"، كما يكتب هو بنفسه، وذلك لأخذها بعين الاعتبار عند معالجة هذه المسألة على صعيد أرثوذكسيّ شامل.

[8] هو أوّل من نشر هذه الدراسة في مجلّة CONTACTS (العام السابع والثلاثين، العدد 131، الفصل الثالث، العام 1985)، وهي مجلّة أرثوذكسيّة لاهوتيّة روحيّة تصدر في باريس، والتي كان يحتلّ فيها منصب سكرتير التحرير.

بهذا يكون هذا اللاهوتيّ الكبير قد وضع هذا الكتاب في سياق كبير جدًّا، وأبرز فرادته على صعيد الكنيسة الأرثوذكسيّة، لأنّه يشكّل دراسة فريدة من نوعها، وإطلالة جادّة تحمل مكتسبات العلوم الإنسانيّة وتلقي نورًا كاشفًا على ممارسة الصوم على خلفيّة خبرة الإيمان المسيحيّ[9].

الكتاب من حيث قصد المؤلّف منه

يعرّف الكاتب أنّ هذه الدراسة هي "بمثابة حوار بين الإيمان والثقافة المعاصرة، نتناولها خاصةً في ما نعرفه منها بطريقة أفضل، علم النفس الحديث الذي نراه، بشكل أساسيّ، في نطاق التحليل النفسيّ". وهو يسعى من خلاله إلى "القراءة في المراحل المبكّرة لولادة الرغبة البشريّة، والتفتيش فيها عن رؤية مسبقة وتهيئة لمسيرة النسك المسيحيّ في مشروع الحياة، المرتبط بسرّ موت المسيح وقيامته".

من هنا، تتناول الدراسة موضوع الصوم، خاصةً ذلك الذي تتّبعه الكنيسة الأرثوذكسيّة والذي يشكّل الصوم فيها أحد عناصر النسك، بمقاربة تستعين بمعطيات علم النفس المعاصر والتحليل النفسيّ بالتحديد، وتسعى، على حدّ قوله، إلى تسليط الضوء على "الروابط الملتبسة للرغبة والغذاء كما يطرحها مفهوم التحليل النفسيّ للفمويّة"؛ ومن ثمّ إبراز، من هذا المنظار، "الوظيفة النفسيّة والروحيّة للصوم"؛ وأخيرًا، طرح "بعض المقترحات بغية الوصول إلى إصلاح محتمل للتطبيق الحاليّ للصوم الأرثوذكسيّ".

الكتاب في سياق حياة المؤلّف ومسيرته البحثيّة

تشكّل هذه الدراسة إحدى ثمار عمل جبّار شكّل الخلفيّة الصلبة لبنية المؤلّف العلميّة والمعرفيّة، وأعني بذلك أطروحة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانيّة، والتي قدّمها في كليّة الفلسفة التابعة لجامعة جان مولان، أي جامعة مدينة ليون الثالثة الفرنسيّة، في العام 1981، تحت عنوان "الصور الوالديّة والمواقف الدينيّة"، والتي نُشرت في ثلاثة أجزاء[10]، بعد أكثر من ثلاثين عامًا، في تعاونيّة النور للنشر

---

[9] لاحظتُ على الشبكة العنكبوتيّة أنّ هناك استشهادًا بالكتاب في مراجع بالرومانيّة وأخرى بالإيطالية، صادرة عن الكنيسة الأرثوذكسيّة أو الكاثوليكيّة، بالإضافة إلى استخدامه كمرجع أساسيّ في مؤتمر لاهوتيّ أرثوذكسيّ حول "الحياة الروحيّة وعلم النفس" نظّمته في فرنسا منظّمة "العمل المسيحيّ للطلبة الروس–حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة" (ACER-MJO) في تشرين الأول 2017.

[10] Costi Bendaly, *Images parentales et Attitudes religieuses – Dialogue avec Freud* :

- Tome I : Freudisme et Religion, Collection « Foi et Sciences humaines » no. 3, Édition An-Nour COOP, Beirut, 2006 ;

والتوزيع في بيروت. وقد تفرّعت عن هذه الأطروحة دراسة مفيدة جدًّا[11]، وهي "ظلال وإشراقات روح الطفولة"، والتي كانت مرشّحة لتصير جزءًا من الأطروحة الأساسيّة، والتي صدرت عن دار النشر الآنفة الذكر.

إلى ذلك، كان قد نشر الكاتب في العام 1982، أي بعد فترة قصيرة من حصوله على درجة الدكتوراه، كتيّبًا عنوانه "الإيمان ومجتمع الاستهلاك"، والذي كان النواة لدراسة تفصيليّة مرجعيّة تتناول مجتمع الاستهلاك وأوّاليّاته وتوجّهاته وقيمه ومُناخه وآثاره، والتي صدرت في طبعة ثانية موسّعة في العام 2001 بعنوان: "فتنة الاستهلاك أم فرح المشاركة؟".

على هذه الخلفيّة يمكننا أن نفهم كيف تشعّبت الدراسات في غير اتّجاه ولكنّها في النهاية صبّت في خدمة رؤية موسوعيّة للكتاب موضوع هذه المقدّمة: "الصوم والفمويّة".

لا ننسينّ المناخ الذي أتت فيه هذه الدراسات الكبرى وغيرها؛ فهو حين دافع عن أطروحة الدكتوراه، كان في الخامسة والخمسين من عمره، وكان قد تدرّج في التعليم الجامعيّ كأستاذ لعلم النفس في الجامعة اللبنانيّة في بيروت (1962-1964) وفي مدرسة الآداب العليا في بيروت (1962-1969)، هذا بالإضافة إلى التعليم في المدارس الثانويّة الرسميّة في مدينة طرابلس. هذا كلّه معطوفًا على ممارسته الإرشاد النفسيّ والتربويّ، بتواتر وعلى نطاق واسع، عبر لقاءات عديدة مع الشباب، أفرادًا وجماعات، خاصّة في إطار التعليم الرسميّ وحركة الشبيبة الأرثوذكسية.

فلا نستغربنّ أن تأتي هذه الدراسة في سياق هواجس يعيشها الكاتب ويعاشرها في وسط كنسيّ حيّ يأخذ التفاعل فيه وجهَيه الطبيعيَّين، منه وإليه، عبر عمليّة إصغاء منه متأنّية للواقع كما واستقصائه الدقيق للمعطيات العلميّة في سبيل توفير المعرفة اللازمة والضروريّة لنموّ سَويّ، روحيّ ونفسيّ، للجماعة الكنسيّة ولكلّ واحد من أفرادها، وواضعًا بين يدَي الكنيسة السبل التي تساعدها في رعايتها لأبنائها، في عصر يتميّز بتبدّلات عديدة.

- Tome II : Désir et Foi, Collection « Foi et Sciences humaines » no. 4, Édition An-Nour COOP, Beirut, 2008 ;
- Tome III, Les Approches Symboliques en Psychologie Religieuse, Collection « Foi et Sciences humaines » no. 5, Édition An-Nour COOP, Beirut, (sans date).

[11] Costi Bendaly, *Ombres et Splendeur de l´Esprit d´Enfance*, Collection « Foi et Sciences humaines » no. 2, Édition An-Nour COOP, Beirut, 2007.

أهميّة تعريب الكتاب وإصداره

إذا كانت هذه الدراسة تستعيد معنى الصوم في حياة المؤمن اليوم، ويساعد طرح المسألة بهذه الرصانة والعمق إلى "اهتداء" المؤمن إلى صميم "البشرى الإنجيليّة" وبناء أفضل لعلاقته بالله وبالخليقة وبمن خُلق على صورة الله، بالاستفادة من مكتسبات العلوم الإنسانيّة، فهذا يعني أنّ صدور هذه الدارسة اليوم بلغة الضادّ أمر بالغ الأهميّة بالنسبة لنا، سيّما وأنّها تضع الصوم في سياق حياتنا الحاضرة، في سياق حضارة يسودها الاستهلاك وانهيار أكبر للعلاقات الإنسانيّة وفقدان مستمرّ للعدالة الاجتماعيّة وممارسة سطحيّة أو ناموسيّة هنا وثمّة للحياة الروحيّة.

إنّ واقع الحياة في الشرق يحتّم طرح هذا الموضوع بسبب من الأهميّة الرمزيّة التي يرتديها "الطعام" في نسج العلاقات الانسانيّة عمومًا بين أبنائها، وبالأكثر بسبب من ممارسة للصوم لا زالت حيّة وحاضرة، الأمر الذي سينعكس بالفائدة الروحيّة، على ضوء وعي أكبر للتحدّيات على غير مستوى، خصوصًا الاستهلاكيّ والعلائقيّ منها.

فهنيئًا لنا بالكتاب!

شهادة حيّة في المؤلّف

الكتاب وليد محبّة المؤلّف لكنيسته محبّة حقيقيّة وصادقة مارسها في حياته بشكل يوميّ، وباستمرار. فهو اختار أن يعيش ويكافح هنا، بين أترابه الناطقين بلغة الضاد، وسعى أن يبني نفسه وتعب مساهمًا في بناء أترابه، مدماكًا مدماكًا، دون أن يبخل عليهم بأي جهد في هذا السبيل. لعمري، لقد نجح في ذلك، وها هي ثمرة هذا النجاح بين يدينا.

الحقّ يقال أنّ الكتاب شاهد على الكاتب من جهة الأصالة والمناقبيّة والحسّ الرفيع. مقترحاته بما يخصّ المستوى النوعيّ للصوم لم تأتِ نتيجة لبحث أكاديميّ أو عقلانيّ فحسب، بل قبل كلّ شيء نتيجة ممارسة شخصيّة حرص على عيشها قبل أن يقترح سبلها على الآخرين. وهذا يشهد عليه كثيرون ممن عاشروه، وباستطاعتهم أن يسوقوا العديد من الشهادات في هذا المجال[12].

---

[12] إليكم إحدى الشهادات في هذا السياق: اعتاد "أبو اسكندر"، كما كنّا ندعوه، أن يوفّر دفع ثمن "السرفيس"، أي أجرة الطريق بسيارة عموميّة من منزله في الميناء إلى مركز عمله الأخير في المدرسة الرسميّة الكائنة في شارع المئتَين. فكان يمشي على قدمَيه قاطعًا

أعتقد أنّ كثيرين ممن عرفوا الكاتب يشاركونني الرأي أنّ مضمون الدراسة يعبّر عن العديد من قناعاته ويعكس ممارسته الشخصيّة ومسعاه طيلة حياته، وذلك قبل أن يخطّ دراسته على الورق ويقدّمها لنا على هذا المنوال، "البسيط" بالظاهر، ولكنّه يقع في خانة "السهل الممتنع". فتحقيق ما ورد في الكتاب يتطلّب من المرء أن يكون مؤمنًا مثله، أي محبًّا لله، وتلميذًا للإنجيل كما كان هو، أي فاحصًا الذات على أساس الكلمة الإلهية ومعرّيًا إيّاها بصدق أمامها وعاملاً بها، مع ترويض للعقل في مناهج البحث وكفاح مستمرّ في سبيل المحافظة على النبراس الذي من أجله يمارس المرء صومه.

عربون شكر وامتنان

في الذكرى الخامسة لرقاد المؤلّف، لم يبقَ لي سوى التعبير عن الشكر والامتنان للدكتور كوستي بندلي، ليس فقط على دراسته هذه، بل على العلاقة التي تربطني به منذ زمن بعيد، رغم ما تخلّلها من انقطاع طويل بحكم غيابي عن لبنان ودراستي وخدمتي خارجه. وقد آثرتُ أن أستعيد جزءًا من هذه المسيرة والمعيّة والفضل في رسالة موجّهة إليه قبل أسابيع من رقاده، والتي لم يستطع أن يقرأها قبل أن توافيه المنيّة. من باب العرفان بالجميل، قمتُ حينها باختيار أقسام من الرسالة ونشرتها وأرسلتها إلى عائلته بمثابة رسالة تعزية. أستشهد ببعض من فقراتها، شهادة بحقّه وتقديرًا لدوره:

"... لقد بلورتَ في حياتك رسوليةً وتلمذةً عكستَ من خلالهما قراءة للإنسانيّة وللإيمان المسيحيّ ولمعطيات العلم الحديث والخبرة الإنسانيّة بعامة، وسعيتَ أن ترى فيها بذور الحياة والرجاء والقيامة، وعملتَ على كشفها للآخرين والدخول في حوار ولقاء ومكاشفة بشأنها، ولا زلتَ تدعونا إلى أن يكون التفاعل حيًّا وبنّاءً ومحييًا للجماعة الكنسيّة وللشركة الانسانيّة بعامة".

"لا شك أن الأمور تتبلور بقدر ما للمعاناة من دور وقوّة واحتدام، عندما تأخذ هذه مجراها الحسن. لا شكّ أنّك انبريتَ أمامها بصدق النفس والقلب العطش والإرادة الثابتة والذهن المتيقّظ والعقل الباحث والفاحص، بالإضافة إلى نور الإيمان الكاشف أمامك معارج الأمور ووجوه الأشخاص وبساطة الخليقة وتعقيدها بآن. هذه اللمسة التي لديّ

مسافة تحتاج النصف ساعة لمن هو في عمر الشباب، وذلك لكي يضع ما وفّره بهذه الطريقة في "صندوق المشاركة" الذي خصّصه للمحتاجين.

عنك يستكملها استلهامك الحياة ببساطة كليّة، باحترام وتقدير لها، حيث البساطة والعجيبة سيّان، إذ هما وجهان لعنصر واحد، هو عودة الكلّ إلى الله وتجسّد الكلمة بيننا. فقد جعل الربّ هذَين البُعدَين متماشيَين ومتمايزيَن بآن، ولكن بمتناول أحبّته البشر في مسعاهم على معارج الحياة".

"كلّ هذا يعني بالنسبة لي رغبة في استلهام مسار انسان اكتشف الحياة وعاشها بالجديّة والتفاني اللذَين يميّزان مسيرة عمر، مسيرتَك الشاقّة والحلوة بآن... إذ تكتمل الصورة أمامك عمّا يخالجني (...) أقف موقف الشاكر لشهادتك ومعيّتك وحضورك. وأودّ لو استلهمها كلّها والحصول على القوّة والنور والرجاء عبرها وفيها، كما أفعل مع غير شخص، كيما أجد مرتكزات في طريق الإيمان والحياة والخدمة الحقيقيّة والصادقة والبنّاءة (...)".

"لا شكّ أنّ مسيرتك حملت معها، عبر هذه السنين التي غبتُ فيها عنك، انعكاسًا آخر لما أعرفه سابقًا، ومرافقتك إيّاها لن تكون سوى بهذا الاستسلام الوديع والبسيط في الصلاة الحارّة، ليبارك الربّ خطواتك على طريق القيامة...".

* * *

بعد هذا الذكر المبارك، لا يسعني سوى أن أردّد، مع مقدّم القرابين، تلك العبارة الليتورجيّة العظيمة: "التي لك مما هي لك، نقدّمها لك..."، لأعبّر بها عما حدث الآن، ألا وهو أنّ كتابة هذه السطور لا تعدو أن تكون سوى "استعادة" بسيطة، على قدر طاقتنا، لما قام به المؤلّف وشاء أن يشاركنا ثماره. ألا تباركنا به!

في الذكرى الخامسة لرقاد المؤلّف،
برمانا، في 13 كانون الأول 2018

+ سلوان
مطران جبيل والبترون وما يليهما
(جبل لبنان)